virtue – αρετή – الفضيلة

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

-WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG

محاضرة للشبيبة – حلب ٢٠٠٥

virtue - αρετή – الفضيلة

تطوّر معنى الفضيلة في:

١. الفلسفة

٢. العهد القديم

٣. العهد الجديد

٤. الأدب النسكيّ المسيحيّ

١. معنى الفضيلة في الفلسفة

كلمة فضيلة تعني **في اللغة** المحكيّة الحسنة، أو الميّزة الجيدة، أو الموهبة والقوّة، وبالنهاية كل ما هو خير للإنسان. بحسب النواميس الأخلاقيّة الإنسانيّة السائدة١[1]. تقابلها في اللغة اليونانيّة كلمة αρετή من فعل αραρίσκω ويقابلها باللاتينيّة كلمة Virtue وهي باللّغة المحكيّة تختصّ بالأكثر بالميزات الجسديّة للإنسان والتفوّق الجسديّ المعيّن واستخدمت للرياضيّين٢[2] على المستوى الأخلاقيّ هي عكس الرذيلة.

عند **البثياغوريّين** ارتبطت كلّ الأمور بالرياضيّات والأرقام. وكان للرقم قوّة سحريّة سريّة أو على الأقلّ استُخدم لتفسير المدلولات الروحيّة. ومن بين هذه الأمور اندرجت الفضيلة. وأحبُّ الأرقام هي الأرقام الفرديّة لأنّها تملك "وسطاً" أي بداية ووسطاً ونهاية. هكذا مثلاً رقم ٣، ٥، ٧... فالرقم ٥ بدايته ١ ونهايته ٥ وهناك الرقم ٣ وسطاً فيه يفصل بين ١ و٢ وبين ٤ و٥٣[3].

وكان طبيعيّاً بتأثير وميل الفكر إلى مفهوم "الوسط" والاعتدال، المفهوم **الأرسطوتيليّ**، أن تأخذ الفضيلة رقماً فرديّاً يرمز لها. والرقم ٧ هو أحبُّ الأرقام. وبتأثير من هذه البثياغوريّة جاء في سفر الحكمة أن الحكمة بنتْ لنفسها بيتاً ووضعتْ له سبعة أعمدة... بينما البثياغوريّون مالوا أيضاً إلى رقم عشرة (١٠)، حيث أنّه يشكّل مجموع الأرقام المحبّذة (١+٢+٣+٤)=١٠ وتعني الشموليّة. لهذا نجد موسى في العهد القديم يأتي بالوصايا العشرة، أي كلّ الوصايا الإلهيّة.

١[1] قاموس لغة عربية.

٢[2] Ηρακλέους (Νέμεα Ι, 46, 53

٣[3] Θ.Η.Ε, λήμμα «Αρετή», τόμ. Β’, σ. 101

مال **سقراط** إلى التشديد على الفضائل الأربعة، وهي الحكمة والرجولة والعفّة والعدالة.

أمّا أفلاطون، فقد ربط مفهوم الفضيلة بالنفس البشريّة ربّما أن مكونات وقوى النفس البشريّة لديه هي ثلاثة: العقلانيّة والشهوانيّة والغضبيّة، لذلك جاءت الفضائل المقابلة لها كالتالي: الحكمة والعفّة، والرجولة[4]. أمّا العدالة فهي نتيجة مجمل كلّ الفضائل السابقة. لهذا بالنسبة لأفلاطون ارتبطت ممارسة الفضيلة بمفهوم الصحّة النفسيّة. فالنفس السليمة هي التي تملك الحكمة والعفّة والرجولة[5]. ويبقى الشكل الأمثل للفضيلة موجود في الله "εις το Θείον" الذي عنده منتهى الكمال.

صنّف **أرسطو** الفضائل إلى نوعَين. فضائل منطقيّة وفضائل أخلاقيّة[6]. فالفضائل العقليّة والمنطقيّة هي خمسة: الفنّ، العلم، الرأي، الحكمة، والعقل. أمّا الفضائل العمليّة والأخلاقيّة فهي أمثال: العدالة، الرجولة، الانضباط، الوداعة، الكرامة، كبر النفس، الصداقة،... ولأرسطو الفضيلة هي "وسط"- اعتدال بين تطرّفَين[7].

فالفضيلة هي الخير **الوسط** بين شرَّين. الفضيلة هي الوسط بين التقصير والمبالغة، بين النقص والزيادة. وهذا ما أخذه الأدب النسكيّ المسيحيّ وسمّاه الحرب من اليمين (المبالغة) ومن اليسار (النقص). ففضيلة الرجولة هي الوسط بين رذيلتَين القساوة والخوف. فالتطرّف بالمبالغة أو التطرّف بالكسل والإهمال يسرقان من الممارسة فضيلتها. فكما أنّ الإهمال بالصوم رذيلة فإنّ المبالغات تُفقده أيضاً فضيلته!

الأبيقوريّون يجدون الفضيلة في "إشباع الرغبات" "ηδονή" وهي تقود إلى الاستقرار والثبات. وهذا يتعلّق فعلاً بمفهوم "الصلاح" و"الخير" لدى كلّ تيّار فكريّ فلسفيّ إنسانيّ.

[4] Πολιτ., 436, α, σ. , τιμ. 69 α, σ.
[5] «υγεία τε και κάλλος και ευεξία της όλης ψυχής», Πολιτ., 44, α
[6] Ηθικ. Νικ. 11, 1
[7] Ηθικ. Νικ. 1104α

بينما رأى **الرواقيّون**، وهم أخلاقيّون جدّاً، أنّ الفضيلة مثل العفّة والحكمة و... هي الحالة الطبيعيّة للحياة الإنسانيّة "φύσει"[8] كما أدخل الراوقيّون إلى مفهوم الفضيلة والرذيلة، أو الخير والشرّ، مفهوم الأمور **الحياديّة**.

لا تعتبر كلّ الأمور خيّرة أو شرّيرة حُكماً، بل بحسب استخدامها. فالحياة نفسها والغنى ليسا بالضرورة خيراً! الفقر والموت ليسا بالضرورة شرّاً. ما يحدّد صلاح موضوع ما أو شرّه هو الاستخدام[9]. وقد أخذ آباء القرون المسيحيّة الأولى هذا التعليم الأخلاقيّ. ولكنّهم بدّلوا في التصنيف بحسب التطويبات المسيحيّة.

هكذا انفصلت التيّارات الإنسانيّة والفلسفيّة في **اتجاهَين** مختلفَين لتحقيق السعادة البشريّة والتحرّر الداخليّ. فالتيّار الأخلاقيّ، كما عند الرواقيّين وصل لحدّ قبول موت الإنسان في سبيل الفضيلة وقهر الشهوات. مفترِضاً أنّ الفضيلة تحرّر الإنسان. والتيّار الآخر ذهب إلى أقصى الإباحيّة واللامبدأيّة، كما عند الأبيقوريّين، في سبيل تحرير الإنسان من رغباته بإشباعها وتحقيق الاستقرار.

٢. معنى الفضيلة في الكتاب المقدّس–العهد القديم

في الكتاب المقدّس بعهده القديم **ترد** كلمة فضيلة (αρετή) حرفيّاً (١٦) مرّة وبمعانٍ متغايرة قليلاً. والجديد هنا في الكتاب المقدّس في مفهوم الفضيلة أنّها تفسَّر تحت ضوء الحضرة الإلهيّة وليس من المنظور الإنسانيّ الاجتماعيّ كما في الفلسفة. الله، في الكتاب المقدّس، والعلاقة معه هما أمران مركزيّان يفسِّران كلّ الأخلاقيّات الإنسانيّة، لا بل علّة الوجود ذاته. لذلك الفضيلة هو كلّ ما يساعد على **تحسين العلاقة مع الله**. إذن الفضيلة في نهاية المطاف هي حفظ الوصايا الإلهيّة التي ترتّب للإنسان علاقته هذه بالله، كما يريدها الله ذاته. الفضيلة إذن هي "الطاعة" إلى الوصايا الإلهيّة، إنّها الإيمان، إنّها العبادة، إنها الناموس الإلهيّ، وكلّ ما يعاند ويقاوم الخطيئة.

وما هو جديد أيضاً في مفهوم الفضيلة هو **نسبتُها إلى أمثلة حيّة**. فالصبر يُشرح كفضيلة أيّوب، والعفّة تُفهم من يوسف، وهكذا... ولا شكّ أن كتب الحكمة متأثّرة جدّاً بالتعاليم الفلسفيّة الخلقيّة السابقة. وخاصّة حكمة سليمان (الفصل ٨). وما أوضحه الكتاب المقدّس أنّ هدف ممارسة الفضائل لا علاقة له

[8] «το ομολογουμένως τη φύσει ζην, όπερ εστί κατ’ αρετήν ζην», Διογ. Λαερτ. 7, 87

[9] «Ζωήν θάνατον, δόξαν, αδοξία, πόσον ηδονή, πλούτον πενίαν, νόσον θγείαν και τούτοις όμοια», Ζήνωνα, FR. 190

بالاستقرار النفسيّ الذي لدى الأبيقوريّين، ولا بحالة قهر الرغبات لدى الرواقيّين، وإنّما غاية الفضائل هي الطهارة الداخليّة "καθαρότητα". "اغتسلوا وتطهّروا... تعلّموا عمل الصلاح.." (أشعياء ١، ١٦-١٧)

٣. معنى الفضيلة في الكتاب المقدّس–العهد الجديد

في **العهد الجديد** يمرّ **ذكر** كلمة فضيلة خمس مرّات[10]. لكن تشكّل الموعظة على الجبل والتطوبيات (متى ٥، ١-١٣) ملخّصاً لكلّ الفضائل المسيحيّة. تميّز المسيحيّة المحبّة بين كلّ الفضائل، وبعدها التواضع. "**المحبّة والتواضع**" زوج جليل، يقول السلميّ (**مقالة/**). **التواضع يشكّل أرضاً** لكلّ الفضائل. دون التواضع لا يمكن تحقيق أيّة فضيلة. والمحبّة تشكّل غاية كلّ الفضائل، لذلك بدون تحقيق المحبّة يصير كلّ جهاد في حياة الفضيلة عاقراً دون ثمر ودون جدوى، "فإنّ كانتْ لي القدرة على نقل الجبال ولم تكنْ لي المحبّة فما أنا إلاّ صنج يرنّ"، يقول بولس الرسول. لذلك **لا تُعدّ المحبّة بين الفضائل**. إنّما تُعتبَر كلّ الفضائل ممارسات وأدوات مساعدة للوصول إلى المحبّة. والمحبّة هي أمرٌ عمليّ وليست مجرّد عواطف أو كلمات رنانّة. المحبّة تعني الأفعال الصالحة للآخر. وما جاء جديد في المحبّة بالإضافة إلى حقيقتها العمليّة هو، عموميّتها. فالمحبّة ليست حصراً على الأقارب أو الروابط المحدّدة. المحبّة مطلوبة حتّى مع مَن يعادينا (الأعداء). وأيضاً هناك أمرٌ جديد آخر في المحبّة المسيحيّة وهو شموليّتها. أي لا يمكننا ممارسة فضائل دون أخرى لنصلْ إلى المحبّة. إنّ أيّ إهمال في فضيلة يعني عدم تحقيق المحبّة. لذلك يقول يعقوب الرسول "فمَن حفظ الناموس كلّه، لكنّه أخطأ في وصيّة واحدة، صار مجرماً في الكلّ، إنّ الذي قال لا تزنِ قال أيضاً لا تقتلْ" (٢، ١٠-١١)

إذن الفضيلة، أو الحياة بحسب الفضائل المسيحيّة، هي حركة "التشبّه" بالله، إنّها حركة "المثال" لتلك الصورة الإلهيّة التي في الإنسان. إنّها حركة نحو "الكمال" المسيحيّ على صورة الله، أي صورة المسيح الإله والتامّ والإنسان التامّ. لذلك كما أنّ مفهوم الفضيلة غير ممكن دون الله في العهد القديم، فهو غير ممكن دون يسوع المسيح في العهد الجديد.

٤. معنى الفضيلة في الأدب النسكيّ

[10] (فيلبي٤، ٨) – (١بطرس٢، ٩) – (٢بطرس ١، ٣، ٥)

في **التراث الأبائيّ**، وخاصّة النسكيّ منه والفيلوكاليّ، تحتلّ الفضائل المسيحيّة مكانة الغاية لكلّ تفسير كتابيّ أو عقائديّ. لأنّ غاية كلّ شيء هي الحياة بالمسيح، والاقتدار به والسعي إلى مثاله.

في اللاهوت **الغربيّ السخولاستيكيّ** يجري التمييز بين الفضائل اللاهوتيّة والفضائل العامّة. فاللاهوتيّة هي الإيمان والرجاء والمحبّة. أمّا العامّة فهي العدالة، الحكمة، العفّة،... أي الفضائل السبعة. وهذا بتأثير من الفلسفات القديمة التي ميّزتْ بين الفضائل العمليّة وتلك المنطقيّة. ودخل هذا التأثير من توما الأكوينيّ[11][11].

وتُعتبَر الفضائل الرهبانيّة الثلاثة (الفقر والعفّة والطاعة) هي الفضائل المميّزة، وتخصّ جميع المسيحيّين وإن كانت تلمع خاصّة في حياة الرهبان.

إنّ الفضائل المسيحيّة ليست ممارسات "جماليّة" في حياة الإنسان منفردة ومنفصلة الواحدة عن الأخرى. بل هي سلسلة مترابطة، تنكسر بمجرّد ضياع حلقة واحد منها. فهي كالأوتار التي يجب أن تتعاون لتخرج نغم الحريّة، كما يقول الذهبيّ الفمّ. القدّيس يوحنّا السلميّ يوضح ترابط كلّ الفضائل بالكلام عن تسلسلها. فهناك فضائل أمّهات وأولاد. كما هي الحال في الرذائل. لذلك لا تعاش فضيلة وحدها ولا تنفق واحدة أيضاً بمفردها. إنّها جميعها تتعاون لتحقيق الطهارة الداخليّة. فالعجب لا يوجد دون كبرياء، والتواضع لا يتحقّق دون ملامة الذات. وهكذا...

إنّ مفهوم الفضيلة في المسيحيّة مرتبط مباشرة وبشكل أساسيّ **بمفهوم الحريّة**. أي ممارسة صالحة دون حريّة الخيار الشخصيّ ليست فضيلة، لأنّها لم تنبع عن طهارة بل عن قهر، ولا تقود إليها. يتشدّد على هذا الرابط بين الحريّة والفضيلة بشكل خاصّ عند آباء القرن الرابع مثل فم الذهب وباسيليوس الكبير، الذي يقول "لا شيء مطوّب دون حريّة"[12][12].

ما أشار إليه الأدب النسكيّ أيضاً، هو أنّ الفضيلة **عكس الرذيلة** من حيث بدايتها. فالفضيلة، نعم صعبة في البداية، لكنّها تصير عذبة وسهلة فيما بعد. ممارسة حياة الفضيلة ليست حياةَ واجبات. بل هي موضوع تهذيب الذوق الداخليّ. فلا يمكننا ممارسة فضيلة ونحن نعشق رذيلتها. إنّ بداية الفضيلة هو كره الرذيلة. إنّها حالة طهارة داخليّة وجمال نفسيّ روحيّ. أو ما نسمّيه حياة التوبة، التي تبدأ بكره الخطيئة

[11][11] A. J. Mennessier, O. P. les :Habitus” et les virtues, Initiation théologique, III, Paris 1952, p. 225

[12][12] PG 31, 361.

حسب القدّيس اسحق السريانيّ. "إذا أحببتَ أن تغلب الطمع أحبب الفقر الطوعيّ" يقول القدّيس يوحنّا الدمشقيّ[١٣][13].

أدخلت المسيحيّة نوعاً جديداً في فكرة ارتباط الفضيلة بمفهوم "**الوسط**". ارتبطت الفضيلة بمفهوم الوضع "الوسط" أي الاعتدال، فالفضيلة هي الوسط بين تطرّفَين. استخدم الأدب النسكيّ المسيحيّ فكرة "الوسط" ليس كموضع لكن **كمرحلة** (زمنيّة). فالحياة بالفضائل المسيحيّة، أي الجهاد للعيش بحسب الوصية الإلهيّة وفضائلها هي مرحلة تأتي بعد كره الخطيئة (من يوم المعموديّة) ويأتي بعدها مرحلة "الراحة" في زمن تألّه الإنسان وكماله الروحيّ. وهي من هذه الناحية تعني ما سيشير إليه الآباء بكلمة **العمل** (πράξις) (الجهاد) الذي يسبق مرحلة الرؤيا (**ثاوريا** θεωρία تألّه- كمال)[١٤][14].

---

[١٣][13] PG 95, 80.

[١٤][14] Κεσελόπουλος, Α., *Πάθη και αρετές στην διδασκαλία του αγίου Γρηγορίου του Παλαμά*, εκδ. Δόμος, 1986, σ. 115-6